كلمة الأستاذ جورج صدقني(*)

باسم طلاّب الفقيد

أيها الحفل الكريم

لقد آثرت أن يكون حديثي عن علاَّمتنا الموسوعي الكبير الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله حديثًا يتناول نظرته إلى العلم، ولا سيما أن العلم ظل شاغله الشاغل منذ شبابه المبكِّر حتى وافاه الأجل المحتوم منذ ما يقارب أربعين يومًا، وأن أتحدث عنه معلِّمًا همُّه أن ينقل شيئًا من علمه الغزير إلى تلامذته ومريديه، فلعلّ هذا يلقي الضوء على جانب من جوانب الإنسان فيه، الإنسان الذي يعطي بغير حساب ويهب من قلبه الكثير الكثير، ولا يكاد يأخذ من الناس إلا القليل، اللهم إلا شعورًا ذاتيًّا **بالرضا وهو عظيم.**

أما موقفه من العلم فمردّه أنه كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الإنسان ما أُوتي من **العلم إلا القليل**: من هنا كان نهمُهُ في طلب العلم نهمًا لا يشبع ولا يهدأ، ومن هنا كان هذا الطالب العربي الغريب في باريس، هذا الطالب **الذي لا يكاد يسدُّ رمقه،** نشيطًا يتنقل من قاعة إلى أخرى في السوربون طالبًا للعلم، وكلّما تفوّق في علمٍ أو نال شهادة علمية فيه، أدرك على الفور أن علمه ناقص، لأنه لا يحيط بكل شيء، فيشرع في حضور محاضرات أساتذة آخرين في علوم أخرى وهكذا دواليك!

لقد كان هذا دأبه طول حياته، فلقد كان - على إدراكه أنه لا يمكن أن يحيط **بكل شيء علمًا** - لا ينفكّ يأكله الفضول إلى معرفة المزيد، وكان - رحمه الله - **كلما**

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

سمع إطراء لعلمه وسعة اطلاعه، أجاب جوابه المألوف: «أستغفر الله!»

لقد عاد أستاذنا اليافي من السوربون إلى الجامعة السورية حاملاً شهادات كثيرة في علوم متباينة، وبدأ يطلق في رحاب جامعتنا الناشئة علومًا جديدة وطريفة لم يسمع بها أحد من قبل: فمن علم السكان، إلى علم الاجتماع، إلى علم الجمال إلى غير ذلك من العلوم... بهذه المناسبة فإني أشهد على أن أول مرة سمعت فيها باللسانيات كان الفضل فيها لأستاذنا اليافي ولهذا قصة تُروى:

كان ذلك في العام ١٩٥١، حين كان يلقي علينا محاضرات في علم الاجتماع، وكان كلّفني أن ألخّص كتابًا للدكتور علي عبد الواحد وافي عنوانه (المسؤولية والمجتمع). حملت إليه التلخيص في الموعد المحدد، وبي حماسة شديدة لعرض الموضوع أمامه، لكنه فاجأني بسؤال: أما من ملاحظة لديك على الكتاب؟ قلت: بلى! الهمزة في كلمة المسؤولية في العنوان موضوعة خطأ على نبرة! فابتسم وتحلّى بصبر جميل حتى فهمت لأول مرة أن قواعد الإملاء تختلف مع الأسف من قطر عربي إلى آخر! ثم سألني وماذا أعجبك في الكتاب؟ فقلت: أعجبني أسلوب الكاتب في العرض، فهو بيّن وواضح. قال فورًا: عليك إذن أن تلخص من كتبه كتابًا آخر عنوانه (علم اللغة)، وحدّد لي موعدًا لعرض التلخيص عليه.

حضرت في الموعد المحدّد غير مرتاح، لأنني قرأت معظم الكتاب، دون أن أستطيع تكوين فكرة واضحة عما قرأت. فبادرت أستاذنا أسأله لماذا جعل المؤلف عنوان كتابه (علم اللغة)، وكان حقه أن يقول علوم اللغة، لأن في العربية علومًا كثيرة، فأجابني: لأن موضوع الكتاب هو اللغة عمومًا، وليس اللغة العربية. فازداد الأمر غموضًا وإبهامًا في نظري. وسقط في يدي وأنا أصغي إلى شروح أستاذي، فلا أفهم. والآن أكاد أقول إنه لو كان لأستاذنا أن يرى ما سيكون في قابل الأيام، لكان قال لي: «يا بني، هذا علم جديد، قد يكون من المبكر عليك

أن تخوض فيه. قد تلتقي بهذا العلم بعد خمسين سنة حاملاً اسمه الجديد، وهو (اللسانيات)!!

لقد باتت الكتب التي وضعها أستاذنا اليافي تؤلف مكتبه صغيرة تضمّ جميع الكتب التي وضعها لتدريس العلوم المقرّرة على الطلاب، فضلاً على معجم متعدد اللغات يضم مصطلحات علم السكان بلغة عربية واضحة ومبينة. وقد وضع هذا المعجم الفريد بناء على طلب من منظمة الأمم المتحدة. ولا ينبغي أن ننسى أن بين هذه المؤلفات كلها ديوان شعر جميل.

غير أن الكتاب الأهم بين هذه الكتب - في رأيي - هو كتاب (الفيزياء الحديثة والفلسفة)، الذي كان مقرّرًا علينا،، نحن طلاب الفلسفة، في السنة الثالثة. وتتلخص أهمية هذا الكتاب - إن كان فيه شيء قابلاً للتلخيص - في أنه كشف عن شمول النسبية لقوانين الفيزياء الحديثة، فهي قوانين تسودها علائق الارتياب، وهي علائق تسمح منطقيًّا بتطوير الحقائق العلمية، وبتقدم العلوم. لقد كان القول بأن الأرض مسطحة حقيقة علمية في وقت من الأوقات. وكان القول بأن الأرض مركز المجموعة الشمسية وأن الشمس والكواكب الأخرى تدور حول الأرض حقيقة علمية في زمن مضى. وحين تغيرت الحقائق العلمية في العصور الغابرة لتحل محلها حقائق علمية جديدة، أصبح بالإمكان الحديث عن تقدم في العلوم يطوي صفحة قديمة، ليكتب صفحات جديدة قابلة للتدقيق والتمحيص في قابل الأيام. وهذا معناه أن العقل العلمي الحديث عقل متواضع ومستنير، وينبغي له، بناء على ذلك، أن يكون على استعداد دائم لقبول أي تطور في العلوم الحديثة، وأن يكون احتمال هذا التطور ماثلاً أمامه في كل حين، حتى لو كان هذا التطور كشفًا يغيّر جزئية من قانون من قوانين الفيزياء، وحتى لو كانت الدوائر العلمية المختصة قد استقرّ رأيها على أن هذه الجزئية مبرهنة أو مثبتة.

وإني لأكاد أقول، بكلمة أخرى، لو أن العلماء في الماضي، لم يقبلوا الاكتشافات العلمية الجديدة، لما تطورت العلوم البتة، ولظل علماء الفلك يقولون إن الأرض مسطحة وإن الشمس تدور حول الأرض، وهذه كلها كانت حقائق علمية في عصرٍ من العصور. وعلى هذا يمكن القول إن الفيزياء الحديثة، التي تحكمها علائق الارتياب، تفرض على علماء الفيزياء المعاصرين أن يقبلوا ما تحمله الأيام من تغيير في القوانين الفيزيائية التي تعلموها أو اكتشفوها، إذا أقيم البرهان على هذا التغيير بالشروط المعترف بها للبحث العلمي.

* * *

أيها الحفل الكريم

إن ذكرياتي، طالبًا، مع أستاذنا اليافي لا تكاد تنفد، فسأكتفي بأن أروي لكم واحدة منها وهذه خلاصتها:

ذات يوم من أوائل العام ١٩٥١، سألني أستاذنا الكبير: سمعت أنك تعرف فلانًا، فهل تعرفه حقًّا؟ (وكان فلان هذا شخصية مرموقة، وكان ذا مكانة ثقافية واجتماعية)، فأجبت: نعم أعرفه! وإذا به يقول لي: إن لديه - أي لدى فلان - مجموعة من الكتب النادرة والثمينة باللغة الفرنسية، بينها كتاب للعالم الإيطالي باريتو (Pareto)، وهو صاحب نظرية طريفة في علم الاجتماع، عرضها في كتابه «الأنظمة الاشتراكية»، وهو كتاب قديم ونادر، لم أعثر على نسخة منه في أي مكان، وأنا لا أريد لكتابي «تمهيد في علم الاجتماع» أن يصدر خاليًا من أي إشارة إلى هذه النظرية، فهلا طلبت منه أن يعيرني هذا الكتاب بضعة أيام ثم أعيده؟ فوعدته خيرًا. لكنني خشيت، في سرّي، ألا أنجح في ذلك، وقلت في نفسي أنّى لطالب في مطلع العشرين من عمره مثلي، أن يحفل به وجيه مثقف مثل فلان، ويرضى بأن يعيره

كتابًا نادرًا وثمينًا من مكتبته المنتقاة؟

الحق أنني ترددت كثيرًا قبل أن أستجمع أطراف شجاعتي، وأذهب إلى صاحبنا (فلان)، الذي كان يعرفني معرفة سطحية، ومن فوق إذا صح التعبير، فلما شرحت له طلبي، قال: عجبًا، ما لك أنت وهذا الكتاب؟!، فلما أنطقت أن أستاذي الدكتور عبد الكريم اليافي هو الذي يحتاج إلى هذا الكتاب لبضعة أيام، انفرجت أسارير الرجل وقال: أهو أستاذك؟ إنه عالم كبير!! ومضى إلى مكتبته، فأحضر الكتاب وملأ يده به إليّ قائلًا:

- سلم على أستاذك! أنا لا أعرفه مع الأسف، ولكن له سمعة عطرة كالمسك. وأنا بشوق إلى لقائه!

رويت هذه الحكاية لأبين مقدار ما كان يتمتع به أستاذنا الكبير من أمانة علمية، ومن حرص على جمع المصادر من مظانّها مهما كلفه هذا الجمع (الذي يحلو لبعض العلماء أن يطلق عليه مصطلح «التقميش») من جهد ومشقة، هذا الحرص الذي مردّه أن يكون عمله أقرب ما يكون إلى الكمال.

بقي أن أقول لكم إنه حين اكتملت، في نهاية العام الدراسي، طباعة كتاب «تمهيد في علم الاجتماع»، الذي كان يصدر منجّمًا في ملازم متوالية، لم أجد - على ما أذكر - شيئًا عن باريتو أو عن نظريته، وهذا ما أثار فضولي، حتى إنني سألته حين سنحت لي أول فرصة عن السرّ في ذلك، فكان جوابه، إذا لم تخنّي الذاكرة: هذا شخص من الطبقة الأرستقراطية، وعلى جانب من الثراء، وقد أراد أن يجعل العلوم الإنسانية نوعًا من الترف الثقافي!!

ولقد أردت في الأيام القليلة الماضية أن أتحقق من صحة ذكرياتي عن (باريتو)، فعثرت على نبذة عنه في إحدى الموسوعات الفرنسية، تقول:

«**هو المكيز فلفريدو فريديريغو سامازو باريتو**: اقتصادي إيطالي، مولد في باريس عام ١٨٤٨، وتوفي في سيلينيي بسويسرا عام **١٩٢٣**، تولى أعمالاً مختلفة في إيطاليا، ثم انتقل إلى سويسرا، فشغل منصب أستاذ كرسي الاقتصاد السياسي في **جامعة لوزان، منذ العام ١٨٩٣**.بذل قصارى جهده ليجعل من الاقتصاد السياسي **تطبيقًا من تطبيقات قوانين علم الحركة (الميكانيك)**، مستعينًا في ذلك بالرياضيات. **أهم مؤلفاته**: «دروس في الاقتصاد السياسي (١٨٩٦- ١٨٩٧)» و«**الأنظمة** الاشتراكية» الصادر في العام **١٩٠٢**».

وهذا الكتاب هو الذي كان أستاذنا الكبير يبذل جهوًدا مضنية للاطلاع عليه، فلما قرأه، خاب أمله فيه، على الأرجح.

لم يكن أستاذنا ومعلمنا الكبير - رحمه الله - يحصر همّه في إلقاء دروس على الطلاب، وإنما كان يسعى إلى إسداء النصح إلى كل من يتصل به منهم.

من ذلك أنه أرشدني إلى ارتياد المكتبة الظاهرية كل يوم جمعة - **لأن عطلتها الأسبوعية كانت يوم الثلاثاء** - وكان، كلما التقاني، يسألني عن حالي، ويجيب **بإسهاب عن كل سؤال قد أطرحه**. وبعد تخرجي من الجامعة، كنت أشعر، كلما التقيته، أنه يهتم بمتابعة خطواتي - **ولا سيما الثقافية منها – وكان لا يبخل علي بالتشجيع والثناء**، وفي السنوات الأخيرة كان يتلطف معي فيشير إلي بقوله: **صديقنا فلان، أو صديقي فلان** ... وكنت في كل مرة أشعر بأنه يلبسني ثوبًا **قشيبًا من الشرف الرفيع**.

رحم الله أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمة واسعة بقدر ما أحسن عملاً ونفع الناس، وأفسح له مقامًا رفيعًا في رحاب جنته.

والسلام عليكم